

## (المحاضرة الثانية)

### ❖ العثمانيون - نشأتهم وتوسعهم في الوطن العربي:

يختلف المؤرخون في أصل العثمانيين وسبب ذلك يرجع الى عاملين أساسيين هما:  
الأول في فقدان المصادر التي تعود الى تلك الفترة والثاني كثرة ما علق بهذه المسألة من  
اساطير وخرافات لذلك فقد تعددت الروايات في هذا الشأن.

ومن أبرز تلك الروايات: ان جد العثمانيين الأعلى وهو (سليمان شاه) ينتمي الى  
اسرة تركمانية اسمها (قابي او كابي) وكان يحكم منطقة (ماهان) شمال شرق إيران، وقد فر  
من امام الزحف المغولي في مطلع القرن الثالث عشر متجها نحو الأناضول الا انه غرق  
اثناء عبوره الفرات فانقسمت اسرته الى قسمين: قسم فضل العودة من حيث اتى اما القسم  
الآخر فكان بقيادة (ارطغرل) الذي قرر الاستمرار في الاتجاه نحو الأناضول وتذكر الرواية  
ان ارطغرل شاهد في طريقه جيشين مشتبكين وهما جيش مغولي والآخر جيش سلطان قونية  
السلجوقي (علاء الدين الأول ١٢١٩-١٢٣٥) فساند جيش الأخير والذي انتصر بفضل  
تلك المساعدة فكافاه علاء الدين على مساعدته بأقطاعه بقعة من دولته في غرب الأناضول  
وهي سهول سكود على الحدود البيزنطية.

ولما توفي ارطغرل سنة ١٢٨٨ أصبح عثمان اكبر أولاده مكانه ولم يلبث هذا ان  
حصل على امتيازات جديدة من قبل السلطان علاء الدين وبعد وفاة الأخير عام ١٣٠٠  
استأثر عثمان بجميع الأراضي التي حصل عليها واخذ بالتوسع على حساب الدويلات  
المجاورة له.

### ❖ ماهي الأوضاع التي ساعدت على التوسع:

استمر خلفاء بني عثمان بالتوسع مستغلين أوضاع بيزنطية التي شعلت الكثير من  
القتال والفتن بالعاصمة وفي البلقان وبالصدام المستمر مع اعدائها من امارات الثغور  
الإسلامية الواقعة على حدودها لذا لم تستطع التحرك ضد العثمانيين الذين استولوا على  
أذرنه وجعلوها عاصمة لهم فضلا عن تراقيا ومقدونيا وبلغاريا وبلاد الصرب واستمر التوسع

العثماني في أوربا والذي توج عام ١٤٥٣ بسقوط القسطنطينية بأيديهم في عهد السلطان محمد الثاني المعروف بالفاتح (١٤٥١-١٤٨١).

في عهد السلطان سليم الأول الذي تولى الحكم عام ١٥٢١ على أثر خلع ابيه بايزيد الثاني حدث انقلاب في استراتيجية الدولة العثمانية اذ توقف زحفها على حساب الغرب الأوربي اوكد يتوقف واتجهت نحو الوطن العربي ومهما تعدد الآراء في تقليل الظاهرة فان هناك أسباب لهذا التوسع وهي:

١- ان موقف العثمانيين في اوربا أصبح منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي موقفا دفاعيا أكثر منه هجوميا فكان لا بد لهم ان يبحثوا عن ميادين جديدة للتوسع.

٢- ظهور الدولة الصفوية في إيران: اذ يعتقد فريق من المؤرخين ان الغزو العثماني للأقطار العربية ما هو الا مرحلة من مراحل الصراع بين الدولتين العثمانية والصفوية بعقد السيطرة على منطقة الشرق الأدنى وكذلك قيام الدولة الصفوية والمماليك بإبواء اخوة سليم الأول الذين كانوا يدعون بحقهم بالعرش العثماني فقاموا بعدة محاولات للسيطرة على السلطة والقضاء على سليم الأول.

٣- الغزو الأوربي للوطن العربي: شهدت بداية العصور الحديثة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر حركة التوسع الأوربي والتي شملت مختلف مناطق العالم وقد تركز الصراع بين العرب والاوربيين في منطقتين الأولى في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الافريقي المتمثل بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسي والثاني في المياه العربية الجنوبية المتمثلة بالبحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي.

### ❖ أوضاع المشرق العربي قبل الغزو العثماني في القرن (١٦) الميلادي:

يؤرخ سقوط بغداد في ايدي المغول (١٢٥٨م - ٦٥٦هـ) بداية لعهد جديد في تاريخ المشرق العربي والذي انشطر الى قسمين القسم الشرقي وهو العراق الذي فقد استقلاله وأصبح ولاية مغولية تعاني ما تعانيه من التخلف في شتى النواحي الحياة وقسم غربي والذي يتألف من الدولة المصرية السورية الخاضعة لسيطرة المماليك

ووقف القسامات موقف العداء أحدهما من الآخر يحاول المغول فتح الدولة المصرية السورية ويسعى المماليك لرد عدوان المغول وقد تحقق لهم ذلك بعد جهود.

وبسبب هذا العداء تقطعت بين العرب أسباب التبادل التجاري والثقافي وانهكت قواهم وضربت مدنهم كما شهد المشرق العربي في تلك الحقبة بدايات الغزو الأوربي والمتمثل بالبرتغاليين الساعيين للحصول على مواقع استراتيجية في هذه المنطقة لغرض السيطرة على طرق التجارة واحتكار وتصدير البضائع لأوروبا وقد تركزت نقاط الصراع بين البرتغاليين والعرب في المشرق العربي في المياه العربية الجنوبية بالبحر الأحمر والخليج العربي.

### ❖ اسقاط الدولة المملوكية في الشام ومصر والحجاز واليمن:

حكم المماليك مصر والشام والحجاز ومن هنا اعتقد العثمانيون بان سيطرتهم على دمشق والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ستجعل في أيديهم امكانات اقتصادية وسوقية استراتيجية ودينية كبيرة.

بعد انتصار العثمانيين على الدولة الصفوية في موقعة (جالديران) سنة ١٥١٤ للتوسع على حساب المماليك في الشام وبسط سيطرتهم على الحوض الشرقي للبحر المتوسط وابعاد نفوذ البنادقة والجنوبيين عنه، وتأمين التجارة العثمانية والاقتراب من البحر الأحمر المؤدي الى المحيط الهندي حيث يتغلغل البرتغاليون هناك كما ان سيطرتهم على البحر المتوسط تساعدهم على مد نفوذهم الى المغرب العربي.

اتسمت العلاقات بين العثمانيين والمماليك في بادئ الامر بنوع من التفاهم غير انها ما لبثت ان عصفت بها الخلافات حيث أدى التوسع العثماني على حساب الامارات المجاورة ومنها امارة (ذي القدر) في الشام الى الاحتكاك بينهم وبين المماليك ، اما السبب المباشر لإسقاط الدولة المملوكية واحتلال الشام فهو تهديد العثمانيين لحدود الدولة المملوكية عندما هاجموا امارة ذي القدر وضموها اليهم بحجة عرقلتها لسير جيوشهم اثناء تقدمها لمحاربة الصفويين.

وهكذا بدأت الحرب بين الدولتين وجرت معركة حاسمة في ٢٣ اب ١٥١٦ عند سهل (مرج دابق) بالقرب من حلب واسفرت عن سيطرة العثمانيين على بلاد الشام وكان للمدفعية العثمانية اثر كبير في تحقيق الانتصار على المماليك الذين بقوا حتى ذلك الوقت متمسكين بأساليب القتال التقليدية.

كان السلطان العثماني سليم الأول يعتقد بان معركة مرج دابق ستؤدي الى انهيار الدولة المملوكية وسقوطها نهائيا في قبضته لذلك ارسل الى (طومان باي) نائب السلطان المملوكي في مصر كتابا يهدده فيه ويطلب منه الاعتراف بالسيطرة العثمانية وعرض عليه ان يتولى حكم مصر نيابة عنه ولكن طومان باي رفض ذلك واصر على المقاومة ويبدو ان السبب الرئيسي لرفضه يكمن في ضغط الامراء المصريين عليه آنذاك خشية ان يثبت مركزه كسلطان في مصر.

قرر السلطان السيطرة على مصر ودخل الدلتا وباغت طومان باي عند الريدانية وفي كانون الثاني ١٥١٧ حدثت المعركة التي انتهت بهزيمة طومان باي ودخول الجيش العثماني مدينة القاهرة وسقوط الدولة المملوكية.

بقي السلطان سليم في مصر بضعة اشهر والتقى هناك بمندوبي مدينة البندقية وعقد معهم معاهدة منحتهم امتيازات تجارية في مصر وقد اتخذت هذه المعاهدة فيما بعد أساسا لمعاهدات الدولة العثمانية مع الدول الاوربية الأخرى فيما يتعلق بالامتيازات الاقتصادية.

عندما سقطت دولة المماليك بيد العثمانيين كان من الطبيعي ان يصبح الحجاز تابعا للدولة العثمانية فلقد ارسل الشريف بركات شريف مكة ابنه الى القاهرة ليقدم فروض الطاعة والولاء للسلطان العثماني اقرارا له بالسيادة على الحجاز وقد استقبل السلطان سليم ابي نمي وإعطاء تفويضا بحكم والده وساعد هذا التفويض الشريف بركات في إبقاء نفوذ الاشراف على ما كانوا عليه أيام المماليك.

اما اليمن فقد دخلت في حوزة العثمانيين سنة ١٥١٧ حين طلب السلطان سليم الى إسكندر الجركسي بان يبقى واليا على اليمن ويحكم باسم العثمانيين ولكن النفوذ العثماني لم يستتب في اليمن نتيجة مقاومة اليمنيين للحملات العثمانية التي أرسلها السلاطين

العثمانيون منذ ١٥٣٩ لليمن. ومع ان سليمان باشا استولى على عدن وأعاد اليمن الى حظيرة الدولة العثمانية الا انه اضطر الى عقد صلح مع امام اليمن يقضي بان يحكم البلاد باسم السلطان العثماني. وهكذا لم يسيطر العثمانيون على اليمن الا بعد سنة ١٨٧٢ والذي ساعدهم في ذلك فتح قناة السويس بفضل قواتهم هناك.

### ❖ استيلاء العثمانيين على العراق سنة ١٥٣٤

ترك السلطان سليم الأول بعد انتصاره في موقعة جالديران سنة ١٥١٤ احد قادته وهو فرهاد باشا لإتمام احتلال الولايات المتاخمة للحدود العثمانية فامر فرهاد باشا باي قلي محمد باشا بالسيطرة على ماردين والرها والموصل وسنجار وتلعفر وجزيرة ابن عمر والعمادية واربيل وكركوك وقد تم احتلالها سنة ١٥١٥ غير ان الحكم العثماني في هذه المناطق ظل قلقا بسبب الموقف المعارض الذي اتخذه السكان من التوسع العثماني آنذاك.

اما العراق الأوسط والجنوبي فقد بقي تحت السيطرة الصفوية وتدهورت أوضاع السكان الاجتماعية والاقتصادية والثقافية نتيجة لسياسة الإهمال التي اتبعها الصفويين فقد كثرت الأوبئة واهملت مشاريع الري وظل نظام الري يعاني كثيرا من الفوضى.

حاول السلطان سليمان القانوني تنفيذ احتلال العراق باستمالة بعض حكامه المحليين لكن هذه الخطوة تسببت في جعل العراق ساحة للصراع العثماني الصفوي، إذ حاول السلطان سليمان القانوني استمالة احد الطامعين في الحكم (ذو الفقار) بالمجيء الى السلطة وعزل حاكم العراق الصفوي آنذاك ولكن ذو الفقار ادرك بعد تخلصه من الحكم الصفوي سنة ١٥٢٧م انه لا يستطيع الاحتفاظ بالحكم فمال الى العثمانيين كثيرا اما الشاه طهماسب الصفوي فقد قام بهجوم كبير على العراق وتمكن من قتل ذو الفقار وأعاد الحكم الصفوي اليه.

شجعت هذه الاحداث العثمانيون على ان يتولوا بأنفسهم السيطرة على العراق ففي سنة ١٥٣٤م تحرك السلطان سليمان القانوني على راس جيش كبير متجها نحو العراق

فانسحبت الحامية الصفوية من بغداد عند سماعها بأنباء وصول الجيش العثماني . وهكذا قد دخل القانوني بغداد دون ان يواجه أي مقاومة تذكر .

بقي السلطان سليمان القانوني في بغداد بضعة اشهر عمد فيها الى تنظيم الإدارة فارسل محمد باشا الى الموصل لتثبيت الحكم العثماني المباشر عليها ووافق على تعيين الشيخ (راشد بن مغماس) حاكم البصرة واليا عليها على ان يكون تابعا لباشا بغداد . ثم عين حاكم ديار بكر السابق سليمان باشا الطويل اول والي عثماني على بغداد .

حاول العثمانيون بعد سيطرتهم على العراق توسيع نفوذهم الى منطقة الخليج العربي فاحتلوا البحرين سنة ١٥٥٥ لكن جاء التوسع متأخرا لقوة النفوذ البرتغالي في هذه المنطقة . لم تكن الأوضاع السياسية في العراق هادئة عقب سيطرة العثمانيين عليه وانما تميزت بكثرة الثورات والانفاضات واستمرت محاولات الصفويين بالسيطرة على العراق حتى تم عقد صلح بين الدولتين العثمانية والصفوية وعقد الطرفان معاهدة (زهاب) سنة ١٦٣٩ ، قسمت وفقها مناطق النفوذ فبقي العراق تحت السيطرة العثمانية .

### ❖ السيطرة العثمانية على اقطار المغرب العربي :

كانت اقطار المغرب العربي تعيش حالة من التفكك السياسي والتدهور الاقتصادي وخاصة بعد ظهور الاطماع الاسبانية البرتغالية فيها مما جعل السلطان سليم الأول بان يأخذ على عاتقه مهمة بناء قوة بحرية تتولى انتزاع السيادة البحرية من الدول الاوربية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وقد عاصر مشروعات الدولة العثمانية في هذه المنطقة ظهور حركة عامة بين قادة البحر المغاربة تستهدف العمل على حماية موانئهم وسواحلهم من الاطماع الاوربية والعمل على تامين وصول المهاجرين العرب من الاندلس بعد سقوط الدولة العربية فيها عام ١٤٩٢ .

لقد كان من أبرز أولئك القادة البحاران المغربيان عروج بن يعقوب واخيه خير الدين المعروف (ببار بروس أي ذو اللحية الشقراء) اللذان كانا يمتلكان اسطولا قويا يعمل في البحر المتوسط فتولى عروج منذ سنة ١٥١٠ إدارة جزيرة (جربة) وهي جزيرة صغيرة تقع في

خليج فاس شرقي تونس بموافقة السلطان التونسي عبد الله الحفصي مقابل دفعه خمس الغنائم التي يحصل عليها من جراء الغارات التي يشنها على السفن الاوربية.

اتجهت انظار عرب المغرب الى عروج واخيه لإنقاذهما من الاعتداءات الأجنبية وكانت بجاية في طليعة المدن التي استتجدت بالأخوين لتحريرهما من الاسبان وربما كان ذلك بسبب كونها اكبر ميناء في شرق الجزائر . وقد لبي الاخوين الدعوة لكنهما اخفقا لصعوبة حصونها لذلك احس الاخوين بضرورة البحث عن قاعدة جديدة لنشاطهما فوق اختيارهما على ميناء جيجل الجزائري الذي يقع غرب بجاية وقد تمكن الاخوان من تحريره وجعله مركزا لنشاطهما.

اتصل عروج بعد ذلك بالسلطان سليم الأول وارسل اليه جزءا من الغنائم وشرح له طبيعة المخاطر التي يتعرض لها المغرب العربي وبين له حاجته الى الدعم والتأييد، وقد اغتبط السلطان سليم بهذا العرض وبعث الى عروج اسطولا مؤلفا من (١٤) سفينة مع امدادات من الرجال والسلاح والذخيرة.

قرر عروج توجيه نفوذه لاحتلال ميناء الجزائر وذلك ان احتلال الجزائر سيجعله قادرا على انقاذ بجاية وسواها من المدن الساحلية التي كانت ترزح تحت النير الاستعماري الاسباني.

كما ان السيطرة على الميناء ستكون ببداية خطوة على تأسيس حكم جديد في الجزائر تكون السلطة فيه له ولأخيه، وعليه اتصل عروج بأخيه خير الدين وكان في وقتها بتونس فطلب منه تجديدي المتطوعين الراغبين بالقتال ضد الاسبان وبعد ان نجح الاخوان في تحطيم الحاميات الدفاعية التي أقامها الاسبان وحرروا الميناء بأواسط عام ١٥١٦م واتجه نحو التلمسان وتتاس والمدية وميليانا في جنوب مدينة الجزائر بتحريرها من السيطرة الأجنبية حاول عروج انشاء دولة في الجزائر قادة على تحقيق وحدة المغرب العربي الا ان هذه الاحلام تلاشت عندما أدرك الاسبان ان طموح عروج باتت خطر للوجود الاستعماري في المنطقة كلها فاصدر الملك شارل الخامس أوامره الى حاكم وهران الاسباني بالتقدم نحو تلمسان وقتله وتشتيت اتباعه عام ١٥١٨.

ادرك خير الدين الصراع ضد الاسبان بعد مقتل أخيه عروج انه ضعيف سياسيا وعسكريا فارسل بعثة الى إسطنبول لطلب المساعدة من العثمانيين فرحب السلطان بذلك وارسل اليه قوة انكشارية مؤلفة من ٦ الاف رجل بمدافعهم وعتادهم عام ١٥١٨ فنجح خير الدين في احتلال قلعة البيلون يوم ٢٧ أيار ١٥٢٩ بعد سلسلة من المعارك مع الاسبان وباحتلالها ضمن امر الجزائر ويعد ذلك في الحقيقة بداية السيطرة العثمانية على المغرب العربي.

ثم قار خير الدين بإعادة بناء الاسطول الجزائري فاستعد لاقتحام تونس في ١٨ نيسان ١٥٣٤ استولى بسهولة الى مدينو تونس بعد ان اغتتم الثورة التي نسبت فيها ضد حاكمها ابي محمد الحفصي حليف الاسبان فسرعان ما استتجد الحفصي بالإسبان الذين هرعوا لمساعدته وحاصروا قوات خير الدين واضطروا الانسحاب الى ميناء عنابة ثم الى ميناء الجزائر واحتلوا الاسبان مدينة تونس يوم ٢١ تموز ١٥٣٥م واعادوا الحفصي الى عرشه بعد ان عقدوا معه اتفاقا ضمن لهم مصالحهم في تونس وكان من ابرز بنود الاتفاق:

- ١- اطلاق سراح جميع الاسرى الاوربيين دون دفع أي فدية.
- ٢- ضمان حرية التجارة للأوربيين والامتناع عن اعمال القرصنة.
- ٣- على السلطان التونسي دفع جزية سنوية للإسبان مقدارها ١٢ الف قرش.
- ٤- ان يتعهد سلطان تونس بتقديم هدية سنوية مكونة من ١٢ حصانا و١٢ مدفعا دليلا على الاستمرار بالاعتراف بالسيادة الاسبانية عليه.
- ٥- تتعهد اسبانيا لحماية تونس ضد أي هجوم اجنبي.
- ٦- يبقى احتلال تونس لحين هدوء الحال فيها.

بالغ الاسبان في الانتقام من التونسيين بسبب انضمامهم الى قوات خير الدين فاستباحوا المدن التونسية ثلاث أيام وقتلوا قرابة ٦٠ الف من المواطنين التونسيين فاندلعت حينها الانتفاضات الشعبية ضد الحاكم الحفصي في القيروان ومدن أخرى فاضطر الى الفرار وعين التونسيين ابنه أبا العباس احمد والي عنابة لتولي الحكم.

وجه الاسبان اسطولهم الى جزيرة جربة سنة ١٥٦٠ فاصطدم بالأسطول العثماني ودحره وكان من بين الاسرى الاوربيين الكونت سيكالا الذي اعلن اسلامه وعرف فيما بعد باسم (سنان باشا) وكان له دورا كبيرا في بناء وقيادة الاسطول العثماني وتحرير تونس من السيطرة العثمانية أواخر سنة ١٥٧٤ ومنذ ذلك الوقت حتى عام ١٥٧٨ غدت تونس ولاية عثمانية يشرف على ادارتها والي الجزائر.

اما ليبيا فقد احتل الاسبان مينائها (طرابلس) عام ١٥١٠م، ثم في عام ١٥٣٥ سلمت الى فرسان القديس يوحنا بعد ان اشترطوا عليه الدفاع ضد العرب فكان هذا التسليم ضمن اتفاقية طالب فيها الفرسان من شارل الخامس فسلم مالطة لتكون قاعدة لهم يغزون منها الوطن العربي.

في اعقاب تولي خير الدين قيادة اسطول العثماني سنة ١٥٣٣ وضع خطة للاستيلاء على طرابلس الا ان التدخل الاسباني بعد سنتين أدى الى فشل الخطة. وفي ١٨ أيلول ١٥٥١ نجحت السفن العثمانية التي تجمعت في شرق البحر المتوسط من السيطرة على طرابلس وتصبح ولاية عثمانية اخرى.

اما إقليم برقة فكان تحت السيطرة العثمانية منذ استيلائهم على مصر وقد اعلن زعماء إقليم فزان ولائهم للعثمانيين.

تولى حكم ليبيا عدد من الولاة العثمانيين، كان (دار غوث باشا) اشهرهم وهو الذي وسع السيطرة العثمانية لتشمل السواحل الليبية بكاملها، كما انشأ فرق الانكشارية هناك، الا ان الاهتمام العثمانيين في ليبيا ظل عسكريا بالدرجة الاولى واقتصر نفوذهم على المدن الساحلية.

اما مراكش الواقعة الى الركن الغربي من المغرب العربي فقد ظلت بعيدة عن متناول ايدي العثمانيين وحكمهم المباشر وذلك بسبب تنامي قوة الدولة السعدية الناشئة منذ منتصف القرن السادس عشر، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها القادة العثمانيون ومنهم (بكري) الجزائري منذ عام ١٥٦٨م لإخضاع مراكش الا ان ذلك لم يتحقق لسببين مهمين:

**أولهما:** النصر الكبير الذي حققه المغاربة على البرتغاليين في معركة (وادي المخازن) سنة ١٥٧٨م الذي جعلهم محط تقدير السلطان العثماني ورغبته في إيقاف الحملات الموجهة ضد مراكش.

**وثانيهما:** ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب وذلك هو (المنصور السعدي) الذي سعى للمحافظة على استقلال مراكش وعدم الخضوع للسيطرة العثمانية.

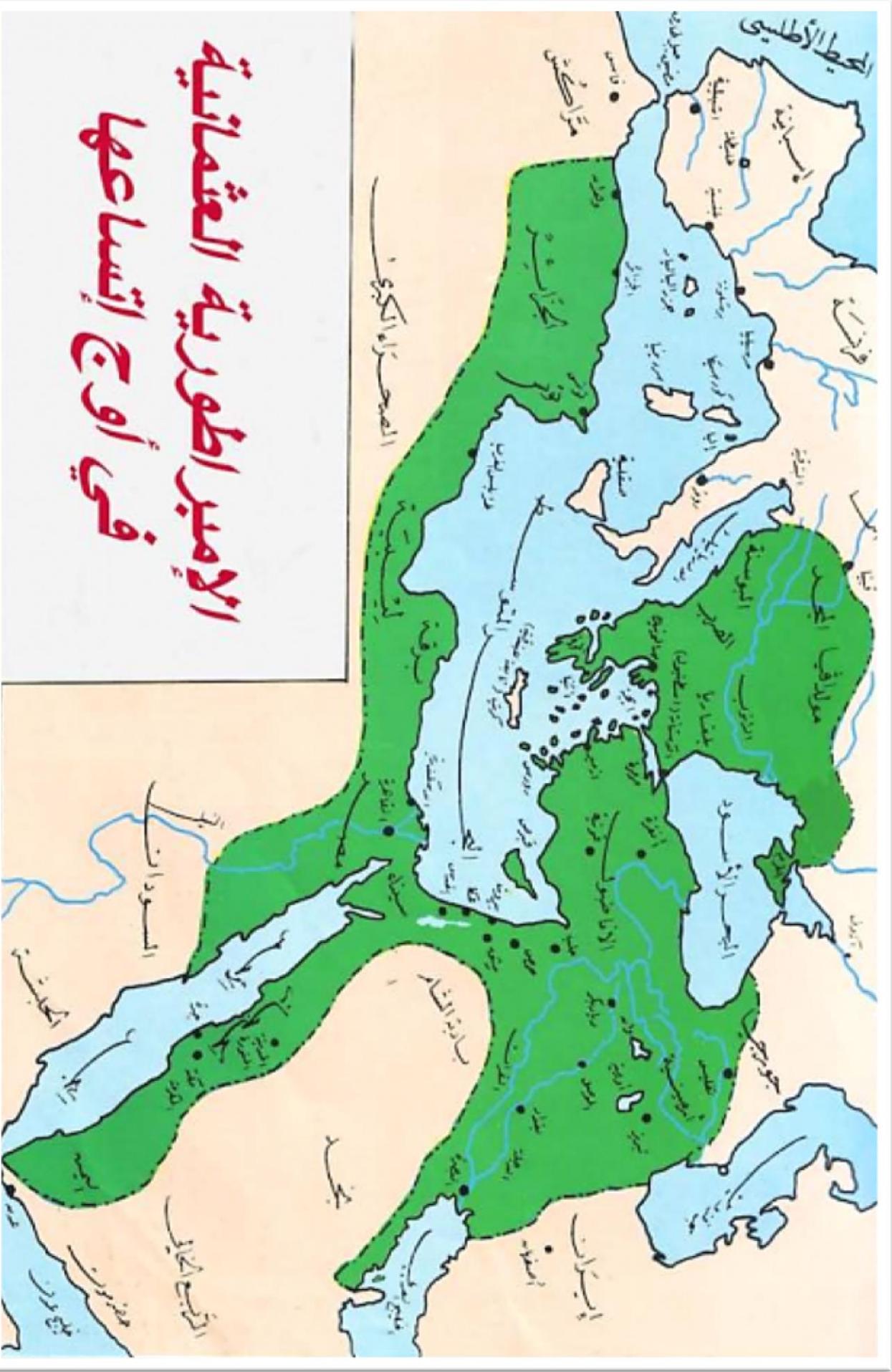
لقد اتسم تاريخ العثمانيين في المغرب العربي بظاهرة ضعف السيطرة على ولاياته وبخاصة بين القرنين السابع والتاسع عشر الميلادي، وذلك لبعدها المسافة التي تفصل بين هذه الولايات وعاصمة الدولة العثمانية.

وايضا ضعف الادارة وسيطرتها على القوة البحرية في تلك الولايات، لذلك فقد لجأت هذه الولايات الى تنظيم ادارة الحكم والحرب فيها على نحو يكفل لها الدفاع عن كيانها في مواجهة الغزو الاوربي.

فقامت في **طرابلس وتونس والجزائر** أسر حاكمة تدين بالولاء الاسمي للدولة العثمانية ويتوارث اعضائها الحكم فيما بينهم. ففي **طرابلس** قامت (الاسرة القرمانية) وحكمت من عام ١٧١١م وحتى ١٨٣٥م.

اما في **تونس** فقد ظهرت (الاسرة الحسينية) التي تولت الحكم منذ عام ١٧٠٤م الى ١٩٥٦م، وفي **الجزائر** اعتاد قادة البحر على اختيار حاكمهم من بينهم يسمونه (الداي)، اما **مراكش** فقد استعصت على العثمانيين بفضل المقاومة التي ابدتها اسرة (الشرفاء العلويين) التي ما تزال تحكم حتى اليوم.

# الإمبراطورية العثمانية في أوج اتساعها



## خصائص الحكم العثماني في الوطن العربي

اهتم العثمانيون منذ بدء سيطرتهم على الوطن العربي في القرن السادس عشر والتي استمرت قرابة الاربع قرون بتثبيت دعائم حكمهم وتنظيم الادارة والمجتمع مستنديين في ذلك الى مصدرين اساسيين. **اولهما:** النظم التي كانت متبعة في مختلف انحاء الدولة العثمانية. **وثانيهما:** النظم التي كانت سائدة في الاقطار العربية قبل احتلالهم لها والتنظيمات العثمانية في المجالات هما:

١- التنظيم السياسي والاداري: أ- الخليفة ب- السلطان والحكومة ج- الوالي

٢- المؤسسة العسكرية العثمانية: أ- القوات الاقطاعية ب- القوات الانكشارية

### أ- النظام السياسي والاداري:

لجأ العثمانيون بعد سيطرتهم على الوطن العربي الى تنظيم الإدارة فيه على شكل وحدات إدارية سميت بالولايات، بلغ عددها في القرن السابع عشر الميلادي (١٤) ولاية عربية من بين (٣٢) ولاية كانت تتألف منها الدولة العثمانية.

لم يحاول العثمانيون في البداية التدخل في حياة السكان طالما حافظوا على ولائهم للحكم العثماني ولهذا يمكن القول ان الحكم العثماني امتاز باللامبالاة وكان هم الوالي المحافظة على وضع ولايته وتوفير أسباب بقائه في الحكم أطول فترة ممكنة.

كان العراق مقسما الى ثلاث ولايات بغداد والبصرة والموصل اما بلاد الشام فقسمت عند استيلاء العثمانيين الى ولاية دمشق وحلب وطرابلس وأعطى للبنان وضع خاص يشرف عليها والي دمشق اما الحجاز فكانت ولاية الحبش التي تضم سواكن وجدة على البحر الأحمر ثم أصبحت تسمى بولاية الحجاز وظلت مصر ولاية واحدة مقسمة الى (٢٤) مديرية، والمغرب العربي مقسم الى ولاية طرابلس وتونس والجزائر اما اليمن فكانت ولاية قائمة بحد ذاتها.

كان السلطان العثماني هو من يعين الولاة وكان معظمهم من الاتراك اما ابرز موظفي الولاية فهو (الكهية) وهو نائب الوالي وبليه (المكتوبي) وهو المسؤول عن

تحريرات الولاية و(الخزنة دار) وهو امين الصندوق وال (الدفتر خانه) وهو المحاسب وكان هناك قائد الانكشارية والقاضي وقد تحولت الانكشارية نتيجة لضعف الدولة وتوقف الغزو من إرهاب الأعداء الى ارهاب السكان.

## ❖ القوات الانكشارية

وهو النوع الثاني التي اعتمدت عليه الدولة العثمانية في إدارة عملياتها التوسعية وقد ظهرت الحاجة لهذا النوع من القوات بعد ان فقدت القوات الاقطاعية أهميتها وصار من الصعب جدا الاعتماد عليها في أماكن بعيدة.

اختلف المؤرخون في تحديد الزمن الذي ظهرت فيه فرق الانكشارية ومهما تعددت الآراء في هذا المجال يمكن القول بان السلطان (ادرخان) هو صاحب فكرة تأسيس الجيش الانكشاري بينما مراد الأول وضع أسس وتنظيمات معقدة للجيش للقوات الانكشارية قائمة على الطاعة المطلقة والانقياد التام للسلطان.

انشأ العثمانيون الجيش الجديد (يني جري - yeni Geri) ثم طور بعدئذ وعرف بالانكشارية من الاعداد الكبيرة من الاسرى المسيحيين الذين حصلوا عليها خلال عمليات توسعهم في اوربا فقد كانت العادة المتبعة هي تخصيص خمس الاسرى للدولة وتحويلهم الى جنود يعملون على بناء الإمبراطورية بالإضافة الى ان الدولة كانت ترسل كل خمس سنوات لجانا تطوف مناطق الروم ايلي لانتقاء الأطفال ممن تتراوح أعمارهم بين سن السابعة وسن العاشرة في العاصمة استانبول يتحول الأولاد الى الإسلام ويتلقون دراسات في اللغة التركية والتاريخ الإسلامي العام والتاريخ العثماني، ثم يقسمون الى ثلاث مجموعات وينصرف افراد المجموعة الثالثة وهي اكبر المجموعات للدخول في السلك العسكري ضمن فيالق الانكشارية وقع الجيش الانكشاري تحت تأثير الطريقة البكتاشية وهي طريقة صوفية باطنية شاعت بين قبائل الاناضول منذ منتصف القرن الثالث عشر وأصبحت هناك علاقة وثيقة بين الانكشارية والبكتاشية.

اعتاد السلاطين العثمانيون بعد احتلالهم الأقاليم تثبيت حامية من الانكشارية في مركز كل ولاية وتكلف القوات الانكشارية كذلك سواء بالعاصمة او في الولاية بوظيفة حماية الامن وجمع الضوابط وكان الاغا الانكشاري وهو بمثابة القائد العام للحامية العسكرية العثمانية في الولاية عضوا في ديوان الولاية وسلطة الوالي عليه محدودة اخذ الجيش الانكشاري بالتدهور منذ عهد السلطان مراد الثالث (١٥٥٤-١٥٩٦) حين سمح في سنة ١٥٨٢ بدخول عدد كبير من المجندين غير المدربين في صفوفهم بالرغم من معارضة اغا الانكشارية ويبدو ان مراد الثالث كان راغبا في افساد تنظيم الانكشارية بعد ان اصبحوا يلجؤون لاستخدام القوة للتدخل في شؤون الحكم والحصول على المكاسب المادية.

كما استفادوا من ظروف الصراع الذي كان ينشب بين أبناء السلاطين المتنازعين على العرش ليفرضوا نفوذهم على السلطان إضافة لذلك انهم غادروا ثكناتهم ونزلوا الى المجتمع وصار الكثير منهم يشتغل بألوان من النشاط التجاري والصناعي فارتبطوا بالمجتمع وبالتالي ضعف ارتباطهم بالدولة وقل ولائهم للسلطان.

لقد لعب الانكشاريون دورا خطيرا في تاريخ الولايات العثمانية العربية اذ أسهموا في الفتن الداخلية وكثيرا ما نشب القتال بينهم وبين القوات المحلية وأصبحت كتابتهم تثير الفوضى وتلح في طلب الهبات السخية والارزاق الوفيرة وقاسى الأهالي منهم كثيرا وقدموا الشكوى من تعدياتهم وتزايدت اعبائهم المالية حتى انهم كانوا يبيعون تذاكر رواتبهم وتسمى (علوفات) وصارت هذه التذاكر تنتقل بالوراثة فأوائل القرن السادس عشر لم يكن عدد الانكشارية يزيد عن خمسة عشر الف جندي بينما ارتفع العدد ثلاث مرات في القرن السابع عشر.

حاول بعض الولاة الاعتماد على القوات المحلية الا ان الانكشارية ناصبوا تلك القوات العداء لأنها تهدد امتيازاتهم فكان ذلك سببا في وقوع بعض الحوادث الدامية في معظم المدن العثمانية فتاريخ العراق والشام ومصر على سبيل المثال مليء بحوادثهم وظلمهم ورجبة الناس في التخلص منهم ولقد كثرت مشاكلهم منذ نهاية القرن السابع عشر

وحاول بعضا الولاة بالتخلص منهم ووضح حد لهم وتخليص البلاد من شرهم فاستطاع بعضهم تأسيس عصابات حاكمة كما في بغداد والموصل وطرابلس وتونس كما ان القوى المحلية استأثرت بالحكم مثال ال معين في لبنان وال ظاهر العمر في فلسطين وال الجليل في الموصل.

اما في العاصمة استانبول فقد اصبح الانكشاريون يثيرون المتاعب والفتن للسلطين وبيهظون الدولة بالنفقات وبدأت محاولاتهم المتكررة لغرض سيطرتهم التامة في العاصمة وفرض سيطرتهم على السلطين فتحولوا الى أداة هزيمة وتخريب واستمروا على ذلك خلال القرن الثامن عشر وكان اخطرها ما حصل في عهد السلطان احمد الثالث (١٧٠٣-١٧٣٠) حين تمكن الانكشارية في ٢٨ أيلول ١٧٠٣ من السيطرة على العاصمة وخلص السلطان واعدام الصدر الأعظم واثنان من معاونيه.

ان التدخل في شؤون الحكم جعل الجيش الانكشاري بعيدا عن ممارسة مهامه الرئيسية في حفظ حدود البلاد وحمايتها من الاخطار المحدقة بها وفي الوقت الذي كان فيه الانكشارية يعبثون بمقدرات السلطين لحقت بالدولة العثمانية في المجال الخارجي قوات القرن الثامن عشر هزائم خطيرة امام الدول الاوربية مما أدى الى ظهور اتجاه جديد في الدول يدعو الى إيقاف التدهور وهو الاتجاه المعروف بحركة الإصلاحات والتنظيمات العثمانية لقد كان من الطبيعي ان يستهدف الإصلاح في المقام الأول التخلص من الجيش الانكشاري وانشاء جيش يحل محله ولم يتحقق ذل في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩).

## ب- النظام الاقتصادي والاجتماعي:

كان النظام السائد هو نظام الاقطاع ومنحت هذه الاقطاعات الى كبار الموظفين وقادة الجيش وافراد العائلة الحاكمة والمقربين منهم، ومنح حق جمع الضرائب الى اشخاص عرفوا بالملتزمين وكانت مدة الالتزام في الأساس سنة واحدة ويشترط على الملتزم الا يحصل من الضرائب أكثر من النسبة المحددة لكن الملتزمين كانوا يستغلون الفلاحين ويجبون منهم

أكثر من الضرائب المفروضة عليهم مما اساءوا الى اقتصاد الريف بصورة عامة وكلما ضعفت سلطة الدولة قويت سلطة الملتزمين فاحتكر كثير منهم الالتزام لسنوات بل اورثه قسم منهم الى أبنائهم من بعدهم وتمتع اكثرهم بسلطة سياسية مثال ظاهر العمر في فلسطين في القرن الثامن عشر الميلادي.

لقد مارس العثمانيون سياسية افقار شديدة وإدارة مباشرة لمرافق الإنتاج ووسائل المواصلات وكان من ابرز واجبات الإدارة العثمانية تثبيت السلطة وجباية الضرائب من غير ان تقدم الدولة للمواطن اية خدمات فلم تول السلطات العثمانية التعليم اهتماما كبيرا وظلت أنظمة التعليم لا تقوم على اكتساب معلومات جديدة وانما اتقان المعلومات التي ورثها الخلف من السلف وعندما اقترب الحكم العثماني من نهايته لم يكن في المدارس الرسمية الابتدائية سوى عدد ضئيل من التلاميذ فضلا عن ان التعليم في العهد العثماني لم يكن يلئم الحاجات الملحة او مقتضيات التطور واقتصرت الخدمات التعليمية على أبناء المترفين وحرم منها أبناء الشعب عامة.

كما سمحت الحكومة العثمانية لنظام الطوائف الحرفية بالاستمرار فكان ان حافظت الحرف على بقائها وصار الإنتاج الحرفي يواجه منافسة البضائع الأجنبية التي اخذت تتدفق على الولايات العربية نتيجة الاتفاقات التجارية التي عقدت بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية فسمحت تلك الاتفاقات بدخول راس المال الأجنبي وغزت الأسواق العربية فأخلت بتجارها الوطنية ولم يظهر الأثر السيء لهذه الاتفاقات الا بعد ان ضعفت الدولة العثمانية وخاصة في القرن التاسع عشر الميلادي وبموجب تلك الاتفاقات حصل الأوروبيون على امتيازات كثيرة ومنها الامتيازات التي منحت الدولة الأوروبية حق المحاكمة لرعاياها في الأراضي العثمانية وفق القوانين الأوروبية ولقد فسرت فرنسا مثلا هذه الامتيازات بان لها الحق في حماية الكاثوليك في الدولة العثمانية اما بريطانيا فقد ادعت من حقها حماية البروتستانت في حين زعمت روسيا ان من حقها حماية الارثوذكس وهكذا استخدمت الدولة الأوروبية الطائفية سلاحا للتغلغل في البلدان العربية كما استفادت من ذلك في استعداد طائفة ضد أخرى وقد حدث مثل هذا في لبنان سنتي (١٨٤٠-١٨٦٠).

لم يستطيع العثمانيون فهم دور الشعب العربي ولا مركز الوطن العربي الحضاري والاستراتيجي (السوقي) فقد عزلوا الولايات العربية من كل نشاط بل وقفوا ضد كل محاولة ترمي الى إعادة الحيوية والنشاط للبلدان العربية تجاريا وثقافيا. وقد اسهم هذا الإهمال في مساعدة الأوربيين على الانتفاض على الوطن العربي خاصة وان اوربا كانت تعيش مرحلة ثانية من ظهور الاستعمار وهي المرحلة الصناعية التي أعقبت الازدهار التجاري نتيجة الاستكشافات التجارية وتحول المجتمع الاقطاعي الى مجتمع تجاري وصناعي وفي هذه المرحلة التي امتدت من أواخر القرن الثامن عشر الميلادي الى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي اخذ الاوربيون يبحثون عن المستعمرات تكون مصدرا للمواد الخام وسوقا لبضائعهم المصنعة ولما كان الوطن العربي يزخر بالثروات فقد اصبح محط انظار الدولة الاستعمارية.

### ❖ مقاومة الدول العربية للحكم العثماني

واجهت السياسة العثمانية في الوطن العربي سلسلة من الانتفاضات والثورات المحلية وذلك منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي وقد ازدادت هذه الانتفاضات حين اخذت الدولة العثمانية بالضعف في القرن الثامن عشر الميلادي فاتسعت قاعدة التحدي وعبر الشعب العربي عن مقاومته للسيطرة العثمانية فوصلت الثورات الى المستويات الشعبية في المدن والارياف وظهرت اسر حاكمة مثل ال العظم في بلاد الشام الى جانب ازدياد نفوذ العشار في اطراف المدن واتسعت الهوة بين العربي والعثمانيين في القرن التاسع عشر.

اتخذت الانتفاضات والثورات العربية اشكالا ومخلفا وشاركت فيها فئات الشعب العربي كلها واطهرت تلك الانتفاضات والثورات التناقض القومي بين العرب والأتراك وكان العراق واحدا من اهم المراكز العربية لمقاومة العثمانيين ولعل انتفاضة (عبد الغني جميل المفتي) التي نشبت في بغداد ضد السيطرة العثمانية من ابرز تلك الانتفاضات فلقد كان لتدهور أوضاع العراق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عقب سقوط داود باشا سنة ١٨٣١ اخر ولاية المماليك الذين حكموا العراق من عام ١٧٥٠ اثر كبير في حدوث هذه

الانتفاضة والتي كانت استجابة واضحة للتذمر الذي اعم أهالي بغداد لسوء سياسة الوالي علي رضا باشا وجهازه الإداري وتعبيرا عن تمسك العراقيين بالاستقلال النسبي الذي تمتعوا به خلال سنين حكم المماليك ففي ٢٨ أيار سنة ١٨٣٢ خرج جمع غفير من محلة قنبر على وهي محلة التي يقطنها المفتي وانضمت اليه جماعات من المحلات الأخرى وتوجهوا نحو السراي وهي تنوي الهجوم عليه فحدثت معركة حامية بين المتظاهرين والحرس الذين تصدوا للتظاهرة غير ان الوالي استطاع ان يجمع قواته ونجح بتشتيت شمل المتظاهرين وسلط مدافعه على محلة قنبر علي واشعل فيها النيران ونهبت دار المفتي ثم أحرقت مكتبته الثمينة التي يقدر عدد كتبها بنحو سبعة الاف كتابا.

اما **المفتي** فقد التجا الى عشيرة **(العقيل)** القاطنة بجانب الكرخ فامر الوالي علي رضا باشا بطرد العشيرة المذكورة من بغداد فرفضت امره واشتبكت مع قواته بتاريخ ٤ كانون الأول ١٨٣٢.

ولقد استعان والي بغداد **(بالمقيمية)** البريطانية في تسهيل نقل قواته الكثيرة العدد الى جانب الكرخ وافلحت القوات العثمانية في قمع الانتفاضة وعاثت في المنطقة فسادا ونهباً وحرقا وهذه الانتفاضة رغم فشلها لأسباب موضوعية اثبتت حب العراقيين للاستقلال ورفضهم للسيطرة العثمانية.

اما **لبنان** فقد شهد انتفاضات عديدة اشهرها تلك التي وقعت في القرن التاسع عشر الميلادي والمسماة **(بالعاميات)** والعامية هي كل حركة يقوم بها الشعب بالدفاع عن حقوقه من ظالميه ومن هذه العاميات عامية انطلياس ففي سنة ١٧١٩ كتب عبد الله باشا والي عكا الذي فرض سيطرته على بلاد الشام كلها الى الأمير بشير الشهابي **(من حكام منطقة جبيل)** طالبا اليه ان يدفع مبلغا كبيرا من المال خلال شهرين والا يضطر لعزله من امانة جبل لبنان وهنا طلب الأمير من جباة الضرائب جمع الأموال من الشعب بكل الطرق والوسائل وماذا يهم الأمير فقر الشعب وعوزه مادامت القضية بقاءه في الامارة

اما في **دمشق** فقد حدثت ثورة كبيرة سنة ١٧٩٨م ورفض أهالي دمشق دفع الضرائب الى احمد باشا الجزائر لكن الباب العالي سرعان ما ادرك نتائج هذه الثورة على مصالحه

فقرر تعيين والي جديد على دمشق ومع ذلك استمرت الانتفاضات وخاصة بجبل عرب ففي سنة ١٨٨٦ م نشبت انتفاضة فلاحية عناك اضطرت السلطات العثمانية على اثرها الى تعيين شبل الأطرش المعروف بصداقته للفلاحين على منطقة جبل العرب كما نشبت انتفاضة أخرى في سنة ١٨٨٩ احتجاج على محاولة السلطات العثمانية تشييد ثكنات عسكرية في السويداء وهو المركز الإداري لجبل العرب، لكن السلطات العثمانية استطاعت ان تقمع هذه الانتفاضة وكانت ظاهرة الانعزال بين الانتفاضات والحركات الثورية العفوية اثر كبير على فشلها وقدرة السلطات العثمانية على قمعها الواحدة تلو الأخرى.

اما في مصر فقد نجح احد كبار المماليك سنة ١٧٦٩ وهو علي بيك الكبير من اعلان استقلال مصر وبدا بتأسيس دولة مصرية قوية شملت الحجاز ومصر وتحالف مع الشيخ ظاهر العمر حاكم صفد في فلسطين ولكن العثمانيين حاصروا علي بيك الكبير سنة ١٧٧٥ وحاصروه في عكا وقتل بعد ذلك.

كما شهدت بلدان العالم العربي حركات وانتفاضات عربية ففي تونس نجح الأهالي في فرض احد الرجال العسكريين حاكما لولايتهم ولقبوه بالباي واضطرت السلطات العثمانية سنة ١٥٩٠ ان تعترف به حاكما وبمرور الزمن زادت سلطة (البكوات) وهم مسؤولون عن الإدارة وجمع الضرائب الى درجة تولي السلطة وقد عمد ادهم وهو (مراد بيك) في أواسط القرن السابع عشر الميلادي الى جعل الحكم وراثيا بأسرته فنشأت الاسرة (المرادية) المتحكمة في البلاد حتى سنة ١٧٠٢ ويعتبر (حمودة باشا) اشهر بايات تونس وهو اول باي جند العرب بدلا من الانكشارية في الجيش وحين حاول الانكشاريون بالتمرد عليه استند الى قواته العربية في مواجهتهم مما ساعد ذلك على إقامة توازن داخلي في تونس رغم احتفاظها بعلاقاتها الرسمية مع الدولة العثمانية.

اما ليبيا فقد شهدت خلال العهد العثماني الذي بدأت سنة ١٥٥١ سلسلة من الانتفاضات وقد استطاعت احدى الاسر المحلية الوصول الى الحكم وهي الاسرة (القرمانلية) التي حكمت من ١٦١١ - ١٨٣٥ وبعد توسع نفوذ هذه الاسرة وتزايد خطر محمد علي باشا في مصر اهتمت الدولة العثمانية بإعادة الحكم المباشر الى ليبيا سنة

١٨٣٥ فبدا بذلك العهد العثماني الثاني وهو عهد الولاية الاتراك الذين استمروا حتى الغزو  
الإيطالي لليبيا سنة ١٩١١م.